من خصائص أدب المدائح النبوية

بقلم: د. عبدالباسط بدر

منذ أن بدأت الدراسات الأدبية في العصر الحديث تأخذ مكانها في الجامعات والمراكز التعليمية الأخرى بخاصة، والساحة الأدبية بعامة، التفت الباحثون إلى المدائح النبوية، ودرسوها بأقدار متفاوتة من العناية والتدقيق، وتتبعوا ظواهرها الفنية والمعنوية، والصفات التي تتميز بها، حتى ليخيل للمرء أنه ليس من شعبة من شعاب هذا الموضوع إلا وقد خطت الأقلام فيها سطوراً وافية، ووصلت إلى أحكام قاطعة، فلا مطمع بعدها لباحث جديد.

ولا أريد في هذا الملخص أن أعرض للدراسات الكثيرة التي تناولت المدائح النبوية، بدءاً بدراسة الدكتور زكي المبارك «المدائح النبوية في الأدب العربي» ووصولاً إلى دراسة الدكتور حلمي القاعود في كتابه محمد ﷺ في الشعر الحديث» إنما أريد أن أقول: إن في هذا الموضوع الخصب جوانب تتسع لدراسات الباحثين، حاضراً، ومستقبلاً، وإن فيه حقولاً لم تؤت ثمارها بعد.

ذلك أن هذه المدائح تشكل تياراً طويلاً يمتد من عصر رسول الله ﷺ إلى عصرنا الحاضر، وما زال يجري في أيامنا هذه بأشكال عدة.

وقد تلون هذا التيار في تراثنا الأدبي بألوان مختلفة، واصطبغ بأصباغ العصور التي ولدت فيها قصائده، وتمرد - في بعض الحالات - على خصائص عصره، وتميز عنها بصفات فنية وموضوعية، وتوزع على طوائف المسلمين وفرقهم المختلفة، فظهر عند أتباع السنة والسلف، وظهر عند الشيعة، وعند المتصوفين، وعند الغلاة الباطنية، ولكنه يختلف في صفاته وقوته من طائفة إلى أخرى، ويتراوح بين النقاء العالي والفكر الشديد غير أنه لا يغيب أبداً.

وفي عصرنا الحديث ما زال الشعراء يصوغون قصائد ومقطوعات كثيرة حول النبي الخاتم ﷺ، بل إن الباحث المدقق يجد في بعض صياغاتهم أشكالاً لا يجدها في التراث، ويجد حضوراً لذكره والتصاقاً حول شخصه وتعلقا به في قصائد ذات موضوعات كثيرة مختلفة، حتى المناسبات الوطنية والقومية والشخصية كانت لدى الشعراء الإسلاميين ميداناً لذكره، وكان هؤلاء الشعراء قد وجدوا في شخصه ﷺ مرفأ تأوي إليه همومهم، فضلاً على كونه مثالاً ينشدونه، وأسوة يدعون الآخرين للتأسي بها.

زكي المبارك

ولاشك أن هذا الحضور الكثيف لشخصية رسول الله ﷺ في الشعر المعاصر يعطي الباحث فرصاً جديدة لدراسة عطاءات هذه الشخصية في الشعر ويعطيه أيضاً فرصاً متجددة لإعادة صياغة قضية المدائح النبوية، وبحث ما استجد فيها.

ومن العبث أن نفصل بين المدائح النبوية التراثية والقصائد المعاصرة التي تستحضر شخصية رسول الله ﷺ لأن كلاً منها يقدم بصدق وأمانة صفات رسول الله ﷺ أو بعضها، وكلاً منهما يتخذه أسوة وقدوة، ويتعلق به تعلقاً شديداً، لقد اختلفت الأساليب وتباينت الصياغات. هناك مديح مباشر ووصف واضح، وهناك مديح غير مباشر ووصف نستنتجه من خلال تطلعات الشاعر وآماله التي يعلقها على تحكيم رسالة الرسول ﷺ والحكم بتوجيهاته.

لذا فإن فرص دراسة هذا التيار باقية ما بقي الشعر يلهج بذكره ﷺ ويستمد من دعوته ورسالته دعوة التغيير وأحلام المستقبل.

وللتمثيل على هذه الفرص، أشير باختصار إلى جانبٍ لم يقل فيه الباحثون القول الفصل بعد، وما زال مهيأ لدراساتهم.

هذا الجانب هو: الخصائص التي تميز «المدائح النبوية» من «المدائح العامة» رغم أن كثرة كاثرة من الباحثين كتبوا عن خصائص المدائح النبوية الفنية والمعنوية.. لكن لم يغلقوا الباب وراءهم بعد، وسوف أعرض بعض هذه الخصائص المميزة وباختصار كبير.

في يقيني أن المدائح النبوية - التراثية والمعاصرة- تتميز بخصائص عامة تجمع بينها على اختلاف عصورها وشعرائها دون أن تلغي الخصائص الخاصة التي تميز مدائح كل عصر، وهذه الخصائص العامة صفات تتصف بها وتفرقها عن بقية المدائح التي عرفها الشعر في تاريخه الطويل، ومن هذه الخصائص ما يلي:

أولاً: الدوافع النبيلة:

للشعر دوافع كثيرة تفجره في أعماق الشاعر وتضطره إلى أن يخرجه للناس، منها: العواطف القوية المضطربة في أعماقه: كالحب، والكره، والرغبة، والرهبة، والمجاملة، ووراء كل قصيدة دوافع أو أكثر يدفع الشاعر لإبداعها، قد تكون هذه الدوافع سامية وقد تكون هابطة، ومهما كانت سامية فإنها لا تبلغ نبل دوافع قصيدة المديح النبوي الصادقة وسموها.

فشعراء قصيدة المديح النبوي يتجردون في الغالب من الدوافع الذاتية الصغيرة، ويتخلصون من الأطماع والأنانيات واللهاث وراء صرر المال، ويستجيبون لنداءات في أعماقهم تشتبك فيها عوامل عدة كلها نبيلة سامية، هذه العوامل هي: التقرب إلى الله سبحانه وتعالى،

والرغبة في ثوابه، والمحبة الصادقة العميقة لشخص رسول الله ﷺ، والأمل في شفاعته يوم الحساب، والتطهر من الذنوب وأوضار الحياة اليومية، والسمو إلى عالم من الصفاء والنقاء يتذوق فيه الشاعر حلاوة الإيمان ويتلذذ بها أيما لذة.

ونحن نجد آثار هذه الدوافع في شعرهم واضحة صريحة، فهم يحدثوننا عنها في ثنايا مديحهم، هذا حسان بن ثابت رضي الله عنه يعدد شمائل رسول الله ﷺ ويثني عليها الثناء العطر، ويتصدى بحماسة بالغة لشعراء المشركين ويرد عليهم هجاءهم، ولا يطلب في ذلك سوى الأجر والثواب من الله تعالى، يقول مخاطباً أبا سفيان بن الحارث:

هجوت محمداً فأجبت عنه
وعند الله في ذلك الجزاء

ومصطفى صادق الرافعي في العصر الحديث يعلن بقوة أنه يحب محمداً ﷺ حباً شديداً وأنه يأمل في شفاعته، وأن هذا يدفعه إلى أن يقول الشعر فيه، يقول:

رعاك الله هل مثلي محب
وقد أمسى (محمد) لي حبيباً
شفيعي يوم لا يجدي شفيع
وطبي يوم لا أجد الطبيباً

وشوقي يصور النشوة العالية التي يحس بها عندما يأخذ في مديح رسول الله ﷺ، والتي تجعله يطيل القول فيه، فيقول:

مدحت المالكين فزدت قدراً
وحين مدحتك اجتزت السحابا

ولا أكاد أجد في أغراض الشعر العربي غرضاً اجتمعت فيه هذه الدوافع النبيلة وتشابكت وارتقت بصاحبها إلى آفاق عليا من الإيمان كما أجد في المدائح النبوية الصادقة، اللهم إلا بعض قصائد الحب الإلهي التي صفت من التطرف والتجسيد وما أقلها!

ثانياً: القداسة:

تتميز المدائح النبوية عن مدائح الملوك والأمراء والوجهاء بأن شخص الممدوح في المدائح النبوية يحمل صفات النبوة والرسالة، ومن ثم فإن الشاعر ينظر إليها بإجلال وقداسة. ومهما أفاض الشاعر من صفات البطولة والكرم والمروءة وغير ذلك من الصفات البشرية التي يصف بها رسول الله ﷺ ويصح أن يصف بها شخصاً آخر فإنه ينتهي دائماً إلى صفات خاصة بالنبوة والرسالة، ويشير إلى مكانته عند الله عز وجل، والشفاعة التي خصّ بها والتي تميزه من سائر المخلوقات، بل من بقية الأنبياء أيضاً كما يقول البوصيري في همزيته التي يركز فيها على هذا التمايز وتلك الصفات فيقول:

كيف ترقى رقيك الأنبياء
يا سماء ما طاولتها سماء
لم يساووك في علاك وقد حا
ل سناً منك دونهم وسناء
إنما مثلوا صفاتك للنا
س كما مثل النجوم الماء

مصطفى صادق الرافعي

وقد اشتط بعضهم في إضفاء القداسة ووصل إلى القول بـ (الحقيقة المحمدية) التي تختلط في كثير من جوانبها مع «الحقيقة الإلهية».

وخلاصة هذه المقولة أن محمداً ﷺ موجود وجوداً معنوياً قبل وجود الخلق كله، ولأجله خلقت الدنيا وأنه يضفي بنوره على جميع الأنبياء، وقد استمد منه الأنبياء منذ آدم عليه السلام نورهم، وما زال جوهره يتعاقب فيهم إلى الزمن الذي ظهر فيه فتوحد الوجود المعنوي الباطن بالوجود الحسي الظاهر. وقد عبر البوصيري نفسه عن هذه المقولة في قوله:

كان سيراً في ضمير الغيب من
قبل أن يخلق كون أو يكونا
تشرق الأكوان من أنواره
كلما أودعها الله جبينا

ختم الله النبيين به
قبل أن يجعل من آدم طينا
فهو في آبائهم خير أب
وهو في أبنائهم خير البنينا

ولاشك أن هذه المقالاة لا تقبلها الشريعة، ولكنها إن دلت على شيء في هذا المقام فإنما تدل على فرط الإحساس بمكانة الممدوح والمبالغة في فهمها مبالغة تخرج إلى الإحالة المرفوضة.

ثالثاً: عرض الهموم الذاتية:

من السمات البارزة في قصائد المديح النبوي أن الشعراء يعرضون فيها همومهم الذاتية غالباً، ومن المعروف أن الهموم عندما تتكاثر على المرء فإنه يلجأ إلى أقرب جهة إليه، وأشدها ثقة عنده ويبحث عندها عن خلاصه، وقد دأب شعراء المدائح النبوية على الفرار بهمومهم الذاتية إلى أعتاب الرسول ﷺ، حيث يقفون بخيالهم بين يديه، وقد يرحلون بأجسادهم إلى مسجده ويقفون أمام قبره ليستحثوا خيالاتهم ويلهموا عواطفهم ويبوحوا - من ثم - بتلك الهموم، تماماً كما يلقي طفل بنفسه في أحضان والديه ويجهش بالبكاء، ويخلط شكواه بشهقات عميقة.

محمود سامي البارودي

وقد تحدث الشعراء عن المشكلات التي تؤرقهم صراحة وعرضوا آلامهم والمحن التي أصابتهم. هذا هو الشاعر الكبير محمود سامي البارودي يجد في مديحه لرسول الله ﷺ فرصة يبوح فيها بآلام النفي والغربة والهوان بعد الجاه والعزة، ويعرض محنته عرضاً مفصلاً، ثم يلوذ بحب رسول الله ﷺ ومدحه فيسمو على آلامه ويعيد إلى نفسه طمأنينتها وأمنها، يقول:

تقاذفتني خطوب لو رميت بها
مناكب الأرض لم تثبت على قدم
في بلدة مثل جوف العير لست أرى
فيها سوى أمم تحنو على صنم
لا أستقر بها إلا على قلق
ولا ألذ منها إلا على ألم
إذا تلفت حولي لم أجد أثراً
إلا خيالي ولم أسمع سوى كلمي
فمن يرد على نفسي لبانتها
أو من يجير فؤادي من يد السقم
ولي بحب رسول الله منزلة
أرجو بها الصفح يوم الدين عن جرمي
خدمته بمديحي فاعتلوت على
هام السماك وصار السعد من خدمي
وكيف أرهب ضيماً بعد خدمته
وخادم السادة الأجواد لم يضم

وقد أكثر بعض الشعراء من عرض همومهم الفردية خلال مدائحهم النبوية، وغالى بعضهم، فالتمسوا بذلك المديح من رسول الله ﷺ البركة واليسر، ووقعوا في مخالفات شرعية خطيرة، دفعتهم إليها عواطفهم الملتهبة وعدم احترازهم في أقوالهم. ولعل خير ما يمثل هذا الموقف في عرامها موقف الشاعر الإمام البرعي عندما مرض ابنه، فقد نظم قصيدة يتوسل فيها برسول الله ﷺ ويمدحه مديحاً عطراً، وأعلن خلالها أنه لا يملك إزاء كربه هذا إلا أن يمد يده إلى ابن آمنة طامعاً في جاهه، فهو غياث المستغيث يقول:

أبني ما بيدي لمثلك حيلة
لكن أمد إلى ابن آمنة يدي
إن ضاق بي وبك الخناق فلم يضق
عني وعنك عريض جاه محمد
ذاك الغياث المستغيث به الذي
لولاه ما كان الوجود بموجد
ذاك المتوج بالمهابة والعلا
شمس النبوة عصمة المسترشد
هو غيم مرحمة يمد ظلاله
ويفيض نائله لكل موحد

ونجد صوراً مشابهة لهذا الموقف عند بعض الشعراء المعاصرين، الذين سعوا إلى تخفيف آلامهم بعرضها خلال مديحهم لرسول الله ﷺ، وتأملوا من رسول الله ﷺ أن يعينهم على ذلك، على نحو ما فعل الشاعر بدوي الجبل، الذي أنزل أحزانه ضيوفاً على قبر رسول الله ﷺ وهو على ثقة تامة بأن هذه الأحزان ستجد قراها، يقول:

بدوي الجبل

وأنزلت أحزاني على قبر أحمد

ضيوف كريم النبعتين وهوب

ولاشك أن هذه المبالغات لا تقبلها الشريعة أيضاً ولكنها إن دلت على شيء في هذا المقام فإنها تدل على التعلق الشديد بشخص رسول الله ﷺ وكشف النفس أمامه والاستراحة بالبوح والمناجاة خلال مديحه.

رابعاً: عرض الهموم العامة:

من المسلم به أن قدراً من شعرنا التراثي قد توزع بين القضايا الذاتية ومديح ذوي الجاه والسلطان، وأن هذا القدر قد شغل عن هموم المجتمعات الإسلامية، وبخاصة شعر المديح الذي كان شعراؤه يتفننون في اقتناص المعاني الفريدة لتمجيد ممدوحيهم، فنحن لانجد في قصائد المديح الرنانة التي حفظتها لنا الدواوين الكبيرة صوراً واضحة لما كانت الأمة تعاني منه وتشكو، وهذه قصائد جرير والفرزدق والبحتري وأبي تمام والمتنبي لا تكاد تجد بها حديثاً عن هموم المسلمين اللهم إلا أخطار الروم، وما كانت لتصوِّر إلاّ لتبين عظمة ما فعله المدوحون.

ولا يعني هذا غيبة الهموم العامة عن الشعر العربي كله، فقد ظهرت هذه الهموم في شعر ابن الرومي وأبي العلاء وابن القيسراني وغيرهم، ولكني أقف هنا عند قصائد المديح العامة التي أقارن بها قصائد المدائح النبوية، وأزعم أن ملامح هموم الأمة لم تكن واضحة فيها، على العكس تماماً مما نجده في كثير من قصائد المديح النبوي.

فقد كان شعراء هذا التيار في الغالب يحملون في قلوبهم آلام شعوبهم، وعندما يقفون لينشدوا قصيدة في مدح رسول الله ﷺ تتفتح قلوبهم وتسكن الشكوى في شجن وضراعة، وتسأل الله أن يفرج كروب المسلمين ويدفع عنهم الأعداء ويرفع الابتلاء بالأمراض، والمجاعات، ويجمع كلمتهم المشتتة. وقد كثر هذا اللون في المدائح النبوية في العصر الحديث وكان أمير الشعراء أحمد شوقي أحد رواده، فما من قصيدة نبوية من قصائده إلا ويشكو فيها شتات الأمة وضعفها وطول سباتها في وقت تتسابق فيه الأمم نحو المجد والحضارة، يقول مخاطباً رسول الله ﷺ:

شعوبك في شرق البلاد وغربها

كأصحاب كهف في عميق سبات

بأيمانهم نوران ذكر وسنة

فما بالهم في حالك الظلمات؟

ويبتهل في أكثر من موقف من مواقفه التي يمدح بها رسول الله ﷺ إلى الله العلي القدير أن ينقذ الأمة من محنتها، لأجل رسول الله ﷺ ولإعادة العزة لأمته، فيقول:

يارب هبت شعوب من منيتها

واستيقظت أمم من رقدة العدم

فالطف لأجل رسول العالمين بنا

ولا ترد قومه خسفاً ولا تسم

يا رب أحسنت بدء المسلمين به

فتمم الفضل وامنح حسن مختتم

المعري

وقد غالى بعض الشعراء في هذه المواقف على نحو ما غالوا في مواقف عرض الهموم الفردية، فسألوا رسول الله ﷺ كشف الغمة، والتوسط لدى رب العزة لذلك، كما فعل الشاعر بدوي الجبل الذي صور حالة المسلمين في

ثنايا مدحه لرسول الله ﷺ تصويراً فنياً بارعاً، وجسد الأهوال التي يتعرضون لها، فمثل حالتهم بحالة ركاب سفينة تتقاذفها الأمواج العاتية وتزلزلها، فيأخذ الهلع منهم كل مأخذ، ويكسو وجوههم بشحوب وصفرة، ويدب اليأس إلى قلوبهم، آنئذ تند منهم صرخة الاستغاثة وهي عند الشاعر استغاثة بأبي الزهراء - فتنقلب الحال رأساً على عقب، وتسكن الأمواج وتغدو نسيماً عليلاً، ويبادرهم لطف الله - من يمن أحمد - فيعيد إلى قلوبهم الأمل والحياة.

يقول:

ويـارب عنـد القبـر قبـر محمـد
دعـاء قريـح المقلتيـن سليـبِ
ترفـق بقومـي واحمهـم مـن ملمـة
لقـد نشبـت أو آذنـت بنشـوبِ
تدفعـت الأمـواج والليـل كافـر
وهـب جنـون الريـح كـل هبـوب
رمـى اليـم أنضـاء السفيـن بمـارد
مـن اليـم تيـاه الحتـوف غضـوب
يزلزلهـا يمنـى ويسـرى مزمجـراً
ويمضغهـا مـن هولـه بنيـوب
يرقصهـا حينـاً وحينـاً يرجهـا
ويـوجـز حـالَيْ هـدأةٍ ووثـوب
وترفعهـا عجلـى وعجلـى تحطهـا
لعـوب مـن الأمـواج جـدُّ لعـوب
وأيقـن أنضـاء السفينـة بالـردى
يطـالعهـم في جيئـة وذهـوب
ولما استطال اليأس يكسو وجوههم
بألوانـه مـن صفـرة وشحـوب
دعوا: يا أبا الزهراء والحتف زاحف
عليهـم لقـد وفقتـم بمجيـب
فأسلسـت الريـح القيـاد كأنهـا
نسيـم هفـا مـن شمـأل وجنـوب
وبـادَهَ لطف الله مـن يمـن أحمـد
بـردٌ علـى عـري الرجـاء قشيـب

ورغم أن الشاعر صرح بأن الإغاثة كانت لطفاً من الله، جرت على يد الرسول ﷺ فإنه قد تطرف عندما أوقف الركب على أبواب رسول الله ﷺ وجعله مجيباً لهم.

وبعد:

فهذه ملامح سريعة من بعض الخصائص التي تميزت بها المدائح النبوية عن المدائح العامة، وثمة ميزات أخرى أكثر وأكثر يسجلها الدارس عندما يعكف على شعر المدائح النبوية التراثية والمعاصرة، وسيجد في المدائح المعاصرة، بالذات آفاقاً لم تصل إليها أقلام الباحثين بعد■

في سرب أحمد

شعر: بدر الحسين
سورية

يا روحي الحيرى أفيقي وابسمي
أبصرت في نشر الخزامى بلسمي
جدي المسير ورفرفي في دوحة
وعلى خدود الورد حطي وارتمي
فلقد ملأت من الحنان تشوقي
فآفاق في نفسي بريق الأنجم
وقرأت في الإحساس لهفة عاشق
سكن الهوى بضلوعه والأعظم
وتحدرت من مقلتي درر التقى
فتمزقت حجب السؤال المبهم
وإنجاب عن وجه الشموس كآبة
وافترّ عن ثغر الجراح تبسمي
حتى سما كالبدر طير مشاعري
جذلان يرتع في رياض الأنعم
فوجدتني في سرب أحمد طائراً
يشدو بآيات الكتاب المحكم
ويوحد الديان في عليائه
وتراه بين مسبحين وصوم
لمحمد أهدي الصلاة وخافقا
بالحب موسوم الجناح متيم